

الرسالة الثانية

من المرية إلى قرطبة

أظنك يا أخى لا تزال على ذكر من أن الرسالة الأولى من هذه الرسائل كتبت ونحن على متن البحر - قبل أن نصل إلى مرافئ الاندلس، أما هذه الرسالة الثانية فقد وضعناها بعد أن حططنا رحالنا فى قرطبة حضرة هذه البلاد «عاصمتها» وقد خصصت هذه الرسالة بوصف كل ما مر بنا من حين اقترابنا من ميناء المرية إلى أن وصلنا إلى قرطبة.

* * *

أما المرية فهى إحدى مدن الاندلس الكبيرة الواقعة فى شرقها، وهى على ساحل البحر الرومى «البحر الأبيض المتوسط» وهى مرسى للسفن القادمة إلى هذه البلاد - الاندلس - وفى مينائها يربض الجانب الأكبر من أسطول الاندلس الأعظم والجانب الآخر يرسى فى بجاية - وهى واقعة بين جبلين، فعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة، وعلى الآخر روضها، والسور محيط بها وبالريش، وفى غربها ريش لها آخر يسمى ريش الحوض، ذو فتادق وحمامات وخنادق وصناعات، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة واحجار أولية وكانما غربلت أرضها من التراب، ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار، وطول وادياها أربعون ميلا فى مثلها كلها بساتين بهجة وجنات نضرة وأنهار مطردة وطيور مفردة، وتشتمل كورتها على معدن الحديد والرخام، وبها لنسيج طرز الحرير ثمانمائة نول، وللحلل النفيسة والديباغ الفاخر ألف نول، وللثياب الجرجانية والاصفهانىة كذلك - ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف، وقد علمت أنه لا يوجد فى بلاد الاندلس أكثر مالا من أهل المرية، ولا

أعظم متاجر وذخائر، وبها من الحمامات والفنادق نحو الألف، وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسناً، وفيها كثير من العلماء والأدباء والفلاسفة^(١).

وجملة القول أن المرية هذه كما رأيت تزخر بالحياة زخراً، وتنطق بنشاط المسلمين وجدهم، وباقصى غايات عزهم لذلك ومجدهم.

فلو أن السماء دنت لمجد ومكرمة دنت لهم السماء

* * *

ولما صافح مركبنا امواه المرية - وكان يسير بحذائنا مركب آخر علمنا أن فيه أبا على القالى اللغوى وافد العراق وسائر من قاموا معنا من الاسكندرية فى مركب أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر - آتسنا من جانب الميناء - ميناء المرية - اسطولا كبيراً قادماً علينا حتى إذا صار منا أذننى ذى ظلم^(٢) أخذ يحيينا من فيه بالرايات والاعلام - وكان فيه الأمير عبد الرحمن بن رماحس قائد أساطيل الاندلس الأكبر - إذ أمره مولاى الحكم ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وولى عهده أن يلقانا فى وفد من وجوه الاندلسيين ويحىء معنا إلى قرطبة، نكرمة عن الأمير لنا ولأبى على القالى - حفظه الله - فكان من رجال ذلك الوفد شاعر الاندلس يوسف بن هارون الرمادى وأبو بكر بن القوطية سيد علماء اللغة فى الاندلس وابن رفاعة الالبيرى أحد أدباء البيرة وفتى نشأ يتوقد ذكاء ويقطر أدبا والمعية يسمى أبا بكر الزبيدى وكثير غير أولئك من علماء الاندلس وأعيانها وقوادها - وهذه عمرك الله آية محسنة على شدة عناية الأمير بالعلم واهله - ولا بدع فقد وقفنا من ذلك على الشيء الكثير الذى سما بهذا الأمير فى اعيننا، فمن ذلك فيما تحققناه أنه يبعث الحين بعد الحين فى شراء الكتب إلى الاقطار، رجالا من التجار، ويرسل إليهم الأموال لا يتباعها حتى جلب منها إلى الاندلس ما لم يعهده فى ربوعها، وقد بعث

(١) أرجانا ذكر من انجته المرية وبحاية إلى الرسالة الرابعة.

(٢) قريئاً جداً.

فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى، وارسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة من قبل أن يخرج به إلى العراق، وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الأبهري فى شرحه لمختصر ابن الحكم، فهكذا هكذا تكون الملوك والأمراء، وبمثل هذا يتعش العلم والعلماء.

* * *

ولما ارسى مركبنا والمركب الذى يقل أباً على القالى على ميناء المربة قدم لنا ابن رماحس جميع رجال الوفد الاندلسى وعرفنا بهم ثم امتطينا المطايا الفارحة وذهبنا إلى دار ابن رماحس الكائنة فى قصبة هذه المدينة.

ولما استقر بنا النوى وألقينا عصا التسيار، وانتظم شملنا فى تلك الدار، أخذ الرمادى الشاعر ينشدنا أبياتا له فى إسماعيل بن عيذون القالى يمتدحه بها^(١) علق بالذاكرة منها هذه الأبيات:

من حاكم بينى وبين عذولى
الشجو شجوى والعويل عويلى
فى أى جارحة اصون معذبى^(٢)
سكمت من التعذيب والتكيل
إن قلت فى بصرى فثم مدا مى
أو قلت فى قلبى فثم غليلى
لكن جعلت له المسامع موضعاً
وحجبتها عن عذل كل عذول

(١) مدح الرمادى أباً على القالى حقيقة بهذه الأبيات.

(٢) من هفوات الشعراء المستظرفة ما روى أن المتنّى لما سمع هذا البيت قال: يصونه فى امته، وان الرمادى لما بلغه قول المتنّى:

كفى بجسمى نحولاً أننى رجل
لولا مخاطبى إياك لم ترنى

قال - وأكرم الله سمع القارىء - اظنه ضربة.

إلى أن يقول متخلصاً بعد أن وصف الروض:

روض تعاهده السحاب كأنه

متعاهد من عهد إسماعيل

قسسه إلى الأعراب تعلم أنه

أولى من الأعراب بالتفضيل

حازت قبائلهم لغات فسرقت

فيهم وحاز لغات كل قبيل

فالشرق خال بعده وكأنما

نزل الخراب بربعه المأهول

فكانه شمس بدت في غربنا

وتغيبت عن شرقهم بأفول

يا سيدي هذا ثنائى لم أقبل

زوراً ولا عـرّضت بالتنويل

من كان يأمل نائلاً فأنا امرؤ

لم ارج غير القرب في تأميلي

وبعد ذلك أخذنا في ضروب من الحديث افضت في نهايتها إلى حادث كدر

علينا صفاءنا، وذلك أن أبا عليّ أخذ يشر على الحقل درر أدبه فكان من بين ما جاء

في حديثه أدب عبد الملك بن مروان وأنه قال يوماً لجلسائه:

أى المناديل أشرف؟

فقال قائل مناديل مصر كأنها غرقىء^(١) الأبيض^(١) وقال آخر مناديل اليمن كأنها

(١) غرقى البيضاء الرقيقة التى تعلو البيضاء دون قشرها الاعلى وقشرها الاعلى يقال له القيص.

نور الربيع، فقال عبد الملك: ما صنعتما - شيئاً أفضل المناديل مناديل أخى بنى
سعد عبدة بن الطيب إذ يقول:

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية
وفار للقوم باللحم المراجيل^(١)
ورد واشقر^(٢) ما ينثيه طابخه^(٣)
ما غَيْرَ الغَلَى منه فهو مأكول
ثُمَّ قَمْنَا إلى جُرد مسومة^(٤)
اعرفاهن لأيدينا مناديل

وانشد القالى الكلمة فى البيت - اعرفها لأيدينا مناديل - فما كان من الأديب
ابن رفاعة الألبيرى - وقد لاحظنا فى خلقه حرجاً وزعارة^(٥) إلا أن استعاد أبا على
البيت مثبتاً مرتين، فى كليهما يشد اعرفها، فقام ابن رفاعة وقال - مع هذا يوفد
على أمير المؤمنين وتجنشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين
الناس لا تغلط الصبيان فيه، والله لا تبعته خطوة، ثم هم بالانصراف، فتدبه الأمير
ابن رماحس أن لا يفعل فلم يجد فيه حيلة، فاضطر ابن رماحس إلى أن يكتب إلى
الحكم يعرفه ويصف له ما جرى من ابن رفاعه ويشكوه، فجاء جواب الحكم إلى
ابن رماحس بما نصه كما أطلعنى عليه ابن رماحس:

«الحمد لله الذى جعل فى بادية من بوادينا من يخطئ وافد العراق إلينا، وابن
رفاعة أولى بالرضى عنه من السخط فدعه لشأنه واقدم بالرجل غير متقص من
تكريمه، فسوف يعليه الاختبار إن شاء الله أو يحطه»^(٦).

(١) جمع مرجل وكان حقها المراجل ولكن لما كانت الكسرة لازية اشبعها للضرورة.

(٢) أى ما تغير من اللحم قبل نضجه.

(٣) أى ما يؤخره لأنه لو آناه لانضجه لأن معنى آناه بلغ به آناه أى ادراكه والعرب لا تنضج اللحم

لتعجيل القرى ومن ثم قال ما غير الغلى منه فهو مأكول.

(٤) أى معلمة. (٥) شراسة وسوء خلق.

(٦) هذه الحكاية واقعة تاريخية حدثت لآبى على القالى عند دخوله الاندلس.

الاسطول الاندلسي

وروح العظمة التي ترفرف عليه

أسلفنا لك في الرسالة الأولى من هذه الرسائل شيئاً من القول قد يكون مغنياً في معنى الاسطول واثره الصالح في الدولة التي تُعنى به، وأن الدولة الفاطمية في افريقية، والدولة الأموية في الاندلس، لهذا السبب بعينه ولأن بلادهما واقعة على سيف البحر الرومي «البحر الأبيض المتوسط» وبحر الظلمات «المحيط الأطلنطي» قد بذّتا سائر الدول في العناية بالاساطيل حتى قبضتا بها على أعنة البحار، واستوتا^(١) على ما فيه من جزائر واقطار، وأضتا بذلك وآضت رعاياهما سادة البر والبحر، بل ذل الزمان لهم ولانت اعطاف الدهر، وهذا هو الذي أرحج بين هاتين الدولتين بالفساد، وأرسل بينهما عقارب الاحقاد، وأثار بينهما نّقع الحرب والجهاد، حتى لا تكاد الحروب بين الدولتين ينطفئ لهيبها، فتراهما للثافة من الأسباب يجردان الجيوش بعضهما على بعض، وتتلاقى اساطيلهما مصرحة بالشر، ولعلك لم تنس بعدُ حادثة هذا المركب الاندلسي الذي قمنا فيه من الاسكندرية، وأنه تحرش وهو ذاهب إلى المشرق بمركب للمعز لدين الله الفاطمي وأخذ ما فيه من بريد وبضائع، فما كان من المعز إلا أن أرسل اسطولاً كبيراً إلى مريض الاسطول الاندلسي في المرية كما أخبرنا بذلك ونحن في هذا البلد - فعات فيه عيثاً، وألحق به وبالمرية ما ارضاه ونقع غلته وأطقاً لهيبه، فلم يسع أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر إلا الانتقام من المعز، فأمر بتجريد الاسطول وحشد المقاتلة والذهاب إلى افريقية فذهب إليها تحت إمرة حاجبه الوزير أحمد بن عبد الملك ابن شهيد اسطول كبير يُقل عدداً عظيماً من رجالات الحرب، فعاج أولاً على مدينة وهران وجمع من فرسان الاندلس المحتلين بلاد المغرب نحواً

(١) استولتا.

من خمسة وعشرين ألف فارس ثم هجم بالرجلان والفرسان على أفريقية ودارت بينه وبين رجال المعز رحى الحرب فهزم الاندلسيون قبائل صنهاجة وكتامة، وكان يتألف منها السواد الأعظم من جيش الافارقة - واقتفوا آثارهم حتى بلغوا ضواحي تونس وهى غنية بتجاريتها الواسعة يسكنها كثير من تجار اليهود الأغنياء فحاصروها براً وبحراً وألحوا فى الحصر فلما رأى أهلها أن الخطر محقق بهم عرضوا أن يسلموهم المدينة وقدموا مبلغاً كبيراً من المال إلى الحاجب ابن شهيد، وقدموا إليه كذلك أنسجة من كل نوع وطُرُفاً من الحلى وذهباً وحجارة كريمة وملابس من الصوف والحرير وأسلحة وخيلاً وعدداً عظيماً من الارقاء، ثم غنم عدا ذلك سفن الميناء واثقالها وضمها إلى سفنه وكر راجعاً إلى الاندلس.

* * *

ومن سنتهم التى مضوا عليها وجرت عادتهم بها أن يحتفلوا بالاسطول عند رجوعه ظافراً من حرب، فتقوم الاساطيل بالعباب وحركات بمرأى من عظماء الدولة ومسمع، كأنها فى حرب مع الأعداء، فاتفق فى اليوم الذى وصلنا فيه إلى المرية أن آب الاسطول الاندلسى رافعا أعلام النصر فى هذه الواقعة، فأمر أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بأن تقوم الاساطيل بالعبابها، فما كان منا إلا أن بادرنّا إلى إمتاع أنفسنا بمشاهدة هذه الألعاب صعبة الأمير، فذهبنا إلى الميناء - مينا، المرية - فوجدنا ثمت فى انتظارنا مركباً كبيراً كأنه رَضْوَى أو ثبير، أو الأمل الكبير، فدعينا إلى النزول فيه، ثم أخذ الأمير ابن رماحس فى أن يرينا ما فى هذا المركب من بروج وقلاع ومناظر وتوابيت ومن منجنيقات ومكاحل بارود ونفط - ومن نوتية، ومن مقاتلة وأسلحة وهلم مما قضينا منه عجباً - وهذا المركب نوع من الأنواع التى يتألف منها الاسطول يسمى «الشوانى» الواحد منه «شونه» ويعد ذلك أخذ هذا المركب يسير بنا الهويّنا فى اختيال، مترجحا ذات اليمين وذات الشمال، كأنه عروس مجلوة يرفرف عليها روح الجمال والجلال، وبعد أن سار بنا فى

البحر شيئاً وقف حيث نشاهد حركات الاسطول والأعيه، وكان الشاطيء ساعته قد غُصَّ بالنظارة من كل صنف من أصناف الناس، والزوارق قد انتشرت على متن البحر من جميع النواحي، وفيها ما لا يعلم عديدهم إلا الله من الاندلسيين والاندلسيات، كى يشاهدوا حركات الاسطول - فكان لذلك منظر تحسر دونه الظنون وتراجع دون ادراكه الاوهام - منظر يبهر رؤؤه الفكر، ويُشيع الروعة فى الصدر، ويتقل بالإنسان من هذا العالم إلى عالم آخر كأنه الخلود.

مجال اسود وملهى سفين فيا طيب لهو ويا منظر
ويا حسن دنيا ويا عز ملك يسوسهما السائس الاكبر

ثم بصرنا بعد ذلك بالاساطيل على اختلاف ضروبها، وقد أخذت بصورة شيطانية فى ألعبيها، فإذا رأيت ثم رأيت كنان^(١) غير أنها تمرق مروق السهام، ورواكد^(٢) هى مدائن، بيد أنها تمر مر السحاب غير الجَهم^(٣) واطياراً إلا أنها جوارح، لا تصيد إلا الارواح، وافراسا فى سرعة البرق اللامع، سوى أنها ذات دُسر وألواح:

تخاذل الالحاظ فى ادراكها
ويحار فيها الناظر المتأمل
فكأنها فى اللطف فهم ثاقب
وكأنها فى الحسن حظ مقبل

* * *

فيا للجوارى المنشئات وحسنها
طوائر بين الماء والجو عوماً

(١) جمع كنانة جمعة السهام.

(٢) ثوابت.

(٣) السحاب الجهم هو الذى لا ماء فيه.

إذا نشرت في الجواجنحة لها
رأيت به روضاً ونوراً مكمماً

* * *

ذاتُ هُذبٍ من المجاذيفِ حاكٍ
هُذبٌ بأكٍ لدممه إسمادُ
حممٌ فوقها من البيضِ نارُ
كُلٌّ مَنْ أرسلت عليه رَمادُ

* * *

ملا الكماءُ ظهورَها وبطونَها
فأنت كما يأتي السحابُ المغدقُ
عجبا لها ما خلت قبل عيانها
أن يحمل الأسدُ الضواري زورقُ

* * *

زأرت زئير الأسد وهي صوامت
وزحفن زحف موابك في زورق

* * *

ترمي بيروج إن ظهرت لعدو مخرقة بطنا
وبنفظ أبيض تحسبه ماء وبه تذكي السكنا^(١)

(١) البيتان من أبيات لابن حمد بن يمدح بها أبا يحيى الحسن بن علي بن يحيى يقول فيها:
انشأت شواني طائرة وبينت على ماء مسدنا
بيروج قتال تحسبها في شم شواحقها قتنا
ترمي بيروج - البيت -
وبعدهما

ضمن التوفيق لها ظفرا من هلك عداتك ما ضمنا
وقوله مخرقة هكذا قرأناها بالخاء المعجمة ولعل الصواب محرقة بالخاء أي إن ظهرت هذه
البروج لعدو في حال احراقها قتل في التو واللحظة لأن معنى بطنا أصيب في بطنه يريد مقتله
والسكن النار وتذكي تشعل.

وما زالت الاساطيل تلعب كأنها فى سُوح القتال، من لدن ذرَّ قرْنُ الشمس إلى أن جاء وقت الزوال.

* * *

وهنا يجمل بنا أن نجمل لك القول على أنواع السفن التى يتألف منها الاسطول الاندلسى وعُددها وآلاتها^(١) فمن تلك الاساطيل نوع يقال له «الشوانى» جمع الشونة أو الشينى كما مر بك آنفا - وهى أجفان حربية كبيرة تقام فيها الابراج والقلاع للدفاع والهجوم - وابراجها ذات طبقات مربعة - فالطبقة العليا منها تقف فيها الجنود المسلحة بالقسى والسهم - وفى الطبقة السفلى الملاحون الذين يجذفون بنحو من مائة مجذاف، ويترواح ما تحمله الشونة من المقاتلة ما بين المائة والخمسين وبين المائتين - وتجهز الشوانى وقت الحرب بالسلح والنفطية والازودة بَلَه الجنود البحرية، ومن أنواع الاسطول نوع يعرف «بالبوراج» جمع البارجة وهو أكبر من الشوانى - ومثله نوع يقال له المسطحات - ومن هذه الاساطيل نوع يقال له «الحراقات» جمع الحراقة وهى مراكب حربية كبيرة قرابة الشوانى بَيَد أن هذه تماز عن تلك بالمنجنيقات وتلك عن هذه بالقلاع، فتراهم يحملون فى الحراقة مكاحل البارود والعرادات والمنجنيقات^(٢) يرمى بها النفط المتشعل على الاعداء - وهم يعملون الحراقة فى صورة الاسد وفى صورة الفيل

(١) راجعنا فيما راجعناه فى ذلك رسالة لصديقنا الفاضل عبد الفتاح افندى عباده.

(١) مكاحل البارود هى المدافع التى يرمى عنها بالنفط وحالها تنوع فبعض يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحاجر وبعض يرمى عنه يندق من حديد زنة عشرة أرتال وزنة مائة والعرادات جمع عرادة وهى آلة تصغر عن المنجنيق ترمى بالحجارة أو السهم المرمى البعيد ويقدر النفط أو العقارب وما إليها، والمنجنيق آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه تجمل كفة المنجنيق التى يوضع فيها الحاجر يجذب حتى ترتفع اسافله على اعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحاجر أو النفط منه فما يصيب شيئاً إلا عصف به عصفاً.

وفى صورة العقاب وفى صورة الحية وفى صورة الفرس كتلك الحراقات التى
كانت للامين بن رشيد، والتى يقول فيها الحسن بن هانىء:

سـخـر الله للامين مطايا
لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برأ
سار فى الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو
أهرت الشدق كالحالنياب
لا يعانیه باللجام ولا السو
ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس إذ رأوه على صو
رة ليث يمر مر السحاب
إلى أن قال يصف هذه المطايا:

تستبق الطير فى السماء إذا ما
استمعجلوها بجيئة وذهاب
ذات سور ومنسر وجناحين
تشق العباب بعد العباب
وكحراقة طاهر بن الحسين التى يقول فيها بعض الشعراء:
عجبت لحراقة ابن الحسين
- لا غرقت - كيف لا تغرق
ويحران من فوقها واحد
وأخر من تحستها مطبق
وأعجب من ذاك أعوادها
وقد مسها كيف لا تورق

أما الطرائد^(١) فهي السفن التي تحمل الخيل للاسطول، وأكثر ما يكون فيها اربعون فرساً - والقوافير^(٢) فهي السفن الكبيرة التي تحمل الزاد والكرع والمتاع - والفلاتك والقوارب والشلنديات^(٣) فهي من توابع الاسطول كالطرائد والقوافير. أما عدد الاساطيل وآلاتها ومعداتنا واسلحتها فهي الرماح والعصى والتراس والزرد والدرق والخوذ، والمنجنيقات والعرادات.

وقد رأيت الاندلسيين يستعملون في حروبهم البحرية النار اليونانية، وهي مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والادهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة يشدونها في مقدم السفينة فيقذفون منها السائل مشتعلا أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من المكان الملتوت بالنفط فيقع على السفن فيحرقها حرقاً، ومن غريب هذه النار أنها تشتعل في الماء والهواء كالنفط - وقد رأيتهم كذلك يستظهرون بالبارود الذي يسمونه «الثلج الهندي» ونحن فلم نسمع بأمة من الامم اهتمت إلى هذا «الثلج الهندي» قبلهم^(٤) ذلك إلى معدات أخرى لا أظنهم قد سبقوا إليها، ارائيها الأمير ابن رماحس في الشونة التي كنا نشاهد منها حركات الاسطول، مثل التواييت المعلقة فوق البروج، وهي صناديق كبيرة مفتوحة من أعلاها، يصعد إليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها للاستكشاف ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق فيرمون

(١) جمع طريدة وقد اخذ الاسبانيون هذا الاسم فقال Tariddo وقال الطليان Tartana وقال الفرنسيون Tartan.

(٢) جمع قرقر وهي المسماة اليوم كراكة أخذناها من الافرنج بعد ان اخذوها هم منا.

(٣) اخذها الروس فقالوا Schelaudو الطليان فقالوا Scialaudو الفرنسيون فقالوا Chaland.

(٤) قال كوندى المستشرق الاسباني: إن المعروف أن العرب استعملوا البارود سنة ٩٠٦ وهم الذين نقلوه إلى الاندلس ومنها اخذه الافرنج - قال: وقد استعمله العرب في محاصرتهم جزيرة صقلية سنة ٦٧٢ هجرية وفي محاربة الاسبانيين سنة ١٢٤٩ م واستخدمه صاحب غرناطة في حصار باجة ثم نقله عن العرب في القرن الثالث عشر روجر باكون الانكليزي وغيره من الكيماويين وأول ما استخدمه الفرنج في واقعة كريس سنة ١٣٤٦ وأنها منحة عظيمة فتحها العرب للاوربيين.

العدو بها وهم مختبئون فى هذه الصناديق، ومعهم عدا الحجارة قوارير النفط وجرار النورة وهى مسحوق ناعم مؤلف من الكلس والزرنيخ يرمون به الاعداء فى مراكبهم فتعمى ابصارهم بغبارها وقد تلتهب فيهم النهاباً - وقد رأيتهم وهم يرمونهم أيضاً بقدر الحيات والعقارب وبقدر الصابون اللين كى يزلقوا أقدامهم - ومن حيلهم التى يتخذونها وقاء لهم من اعدائهم أنهم يحيطون المراكب بالجلود أو اللبود المبلولة بالخل والماء أو الشب والتطرون كى لا يفعل النفط فيها فعله - ومن حيلهم أنهم يجعلون فى مقدم المركب هناة كالفأس يسمونها اللجام، وهى حديدة طويلة محددة الرأس وأسفلها مجوف كستان الرمح تدخل من أسفلها فى خشبة كالقناة بارزة فى مقدم المركب يقال لها «الاسطام» فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز فى مقدم المركب فيطعنون مركب العدو به فلا يلبث حتى ينخرق فينصب فيه الماء فيغرق - ومن تلك الحيل أنهم إذا جن الليل لا يشعلون فى مراكبهم ناراً ولا يتركون فيها ديكاً وقد يسدلون على المراكب قلوفاً زرقاء، فلا يرى العدو مراكبهم التى يشبه لونها لون الماء أو السماء: فسبحان الملهم من يشاء ما يشاء، ويخلق ما لا تعلمون لا إله غيره.

* * *

أما رئاسة الاساطيل فقد جعلوا على كل اسطول قائداً ورئيساً فالقائد يدبر أمر سلاحه وحره ومقاتلته، والرئيس يدبر أمر جريه بالريح أو المجارىف ومعرفة مسالك البحر وطرقه بواسطة الرهنامج^(١) وبيت الابرّة التى هى من مبتكراتهم ولم يسبقهم إليها سابق فيما علمنا، أما النظر فى الاساطيل كلها فيرجع إلى أمير واحد من أعلى طبقات المملكة يلقبونه أمير البحر أو أمير الماء.

* * *

(١) الرهنامج كتاب الطريق وهو الكتاب الذى يسلك به الرىانية البحر ويهتدون به فى معرفة المراسى وغيرها.

وبعد أن أقمنا فى المربة ثلاثة أيام بلياليها تحملنا منها فى ركب فخم نبيل موف على الغاية، فى الابهة والروعة والجلال، قاصدين إلى قرطبة حضرة هذه البلاد، وكان فى طليعة الركب أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس، إذ أمره سيدي الحكم ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وولى عهده كما اسلفنا أن يتلقانا فى وفد من وجوه الاندلسيين ويجيء معنا إلى قرطبة مبالغة من الأمير حفظه الله، فى الاحتفاء بنا وبأبى على القالى البغدادي وبأبى عبد الله الصقلى الفيلسوف الذى وصل إلى المربة قبل انفصالنا عنها، وكان فى الركب من الاندلسيين الرمادى الشاعر وأبو بكر بن القوطية وأبو بكر الزبيدى وكثير من أدباء الاندلس واعيانها.

* * *

وقد بهرنا وسحر اعيتنا وملك علينا البابنا ما رأيناه فى طريقنا من استبحار العمران فى هذا القطر الاندلسى، فقد كنا نمر فى اليوم الواحد بثلاث مدن واربعة، وفى حيثما سرنا نرى الحوانيت - فى الاودية ورؤوس الجبال - لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وما إلى ذلك من ضروب الاطعمة، وكنا نتعثر تعثراً بالجداول والانهار، تحفها البساتين وصنوف الزرع والنجوع والاشجار، حتى لظننا أنه ليس فى هذه البلاد صحراء مقفرة، أو أرض غامرة.

يا أهل أندلس الله دركم

ماء وظل وأنهار وأشجار

مما جنة الخلد إلا فى دياركم

ولو تخيرت هذا كنت اختار

لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا

فليس تدخل بعد الجنة النار

أما القرى والمعاقل والحصون فإنها لا تحصى كثرة، وقراها جميلة لتائق أهلها فى اوضاعها وتبييضها لثلاثين العين عنها:

لاحت قراها بين خضرة أيكها

كالدريين زيرجد مكنون

وأكثر مدنها مسور من أجل الاستعداد للعدو، وفي مدنها لذلك ما يبقى في محاربة العدو ما يرى على عشرين سنة، لامتناع معاقلها ودربة أهلها على الحرب.

* * *

وكنا في طريقنا نتذاكر الأدب ونتناشد الأشعار ونخوض في نسروب من الحديث لا علينا إذا نحن أوردنا شيئاً منها في هذه الرسالة، فمن ذلك أن أبا على قال من كلمة له «لما مررت بالقيروان - وأنا اعتبر من أمر به من أهل الأمصار فأجدهم درجات في العبارات وقلة الفلهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد كأن منازلهم من العلم محاصة ومقايسة، فقلت: إن نقص أهل الاندلس عن مقادير ما رأيت في أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم فساحتاج إلى ترجمان في هذه الأوطان، ولكن لما جئت إلى هنا قضيت عجباً من أهل هذا الاق الاندلسي في ذكائهم^(١)» ومن ثم كنا نراه^(٢) يتغطى عن الاندلسيين عند المباحثة والمناظرة ويقول لهم «إن علمي علم رواية» وليس علم دراية، فخذوا عني ما نقلت فلم آل لكم أن صححت^(٣)» ثم فرط منه قول ذهب فيه إلى تفضيل شعراء المشرق على شعراء المغرب، فانتدب له أحد الأدباء ممن كانوا في هذا الركب وقال: «إن أهل الاندلس أشعر الناس فيما كثره الله تعالى في بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والطيور والكنوس، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن - أما إذا هب نسيم، ودار كأس في كف ظبي رخيم، ورجع بم

(١) هذه الكلمة هي لأبي على القالي بنصها.

(٢) أي القالي.

(٣) وهذه كذلك للقالي.

وزير^(١) وصفق للماء خريز، أورقت العشيّة، وخلعت السحب أبرادها الفضية والذهبية، أو تبسم عن شعاع ثغر نهر، أو ترقرق بطل جفن زهر أو خفق بارق، أو وصل طيف طارق، أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح، وبات مع من يهواه كالماء والراح، إلى أن ودع حين أقبل رائد الصباح، أو أزهرت دوحة السماء بزهر كواكبها، أو قوضت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها، فاولئك هم السابقون السابقون، الذين لا يجارون ولا يُلحقون، وليسوا بالمقصرين في الوصف إذا تفعمقت السلاح، وسالت خليجان الصوارم بين قضبان الرماح، وبتت الحرب من العجاج سماء، وأطلعت شبه النجوم اسنة واجرت شبه الشفق دماء، وبالجملّة فإنهم في جميع الاوصاف والتخيّلات ائمة، ومن وقف على اشعارهم في هذا الشأن فضلهم فيه على أصناف الأمة فقال أبو علي^(٢) نعم وفي الحق ما نقول بيد أن شعراء المشرق فضلا أن شعرهم اصفى دياجّة، وأكثر ماء وطلاوة، واسد مسلكا واوضح منهجا، واشكل في مبناء بالشعر القديم حتى لا يكاد يشذ عنه قيد شعرة، وفضلا أنه في الاعم الأغلب رصين متماسك جزل قوى غير مهلهل النسيج تراهم مع ذلك ذهبوا به كل مذهب من القول، واقتنوا في مناحيه أيما افتتان، وغاصوا على المعاني غوصا حتى بلغوا في ذلك المبالغ، ووصلوا إلى الغاية التي لا وراءها، وإنى لا اظن أن لعلى بن العباس الرومى أو بشار بن برد أو أبى نواس اشباها ونظائر في هذه البلاد، على أنى مع ذلك لست انكر على الاندلسيين ذكاءهم وتوقلهم، وإنهم - كما رأيت وكما وُصفوا إلى «عرب في العزة والانفة وعلو الهمة وفصاحة اللسان واباء الضيم والسماحة بما في أيديهم والنزاهة عن

(١) الزير هو اسفل اوتار العود والذي يليه مثني والذي يليه مثلث والذي يليه بم.

(٢) كل ما وضع على لسان أبى علي وأبى عبد الله الصقلى لا أصل تاريخى له وإنما هذا الموضوع برمه هو من وضعنا وقد زورناه تزويرا لم نسبق فيما نظن إليه ولعلنا قاربنا الحقيقة في هذه المفاضلة بين شعر المشاركة وشعر الاندلسيين على أننا لم نر لاحد قبلنا كلاما في هذا المعنى وسنوفيه حقه في الكلام على شعراء الاندلس في الرسالة الرابعة من هذه الرسائل.

الخضوع والاستخذاء - هندیون فی فرط عنايتهم بالعلوم ورغبتهم فیها وضبطهم لها - بغدادیون فی نظافتهم وظرفهم ورقة اخلاقهم وذكائهم وجودة قرائحهم ولطافة اذهانهم ونفوذ خواطرمهم - یونانیون فی استنباطهم للمیاء ومعاناتهم لضروب الغراسات واختیارهم لاجناس الفواكه وتدیرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتین بانواع الخضر وصنوف الزهر - صینیون فی اتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية - تركیون فی معانة الحروب والحدق بالقروسية والبصر بالطعن والضرب».

كبرت حول ديارهم لما بدت

منها الشمس وليس فیها المشرق

* * *

ولو ابصروا لیلی اقروا بحسنها

وقالوا بأنی فی الشتاء مقصر

وهنا انبعث أبو عبد الله الصقلی الفيلسوف وقال ما تلخیصہ: الذی اراه أن شعراء كل قطر من الاقطار أو جیل من الاجیال لا بد من أن يتأثروا بالمحیط الذی يحیط بهم، وأن يصطبغ شعرهم بصبغة ما یرون ویحسون من حولهم، فالشاعر الجاهلی أو المتبدي فی الجاهلیة والاسلام الذی لا تقع عینه الا على صحراء مقفرة، او سماء ماطرة، أو وحش كاسر، أو غزال نافر، لم یر ريفاً، ولم تغذه رقة الحضر ولم يشبع من طعام، قد خالط الغیلان، وانس بالجان، وأوى القفر والیرابیع والظباء، فإنه حرى أن لا یقول إلا فی جنس ما هو بسبیله من وصف البید والمهامه والظبی والظلم والناقة والجمال وما إلى ذلك، فی قول مونتق مشرق واضح الطريقة لا تعمل فیہ ولا كلفة، یوآثم امرجتهم وطبائعهم، ویلائم المحیط الذی فیہ عاشوا، والجو الذی فیہ درجوا، والفطرة الأولى التى فطروا علیها، والسذاجة التى هی من خاص صفاتهم، وقد یكون لهم مع ذلك الحکمة البارة، والكلمة الرائعة، والمثل

السائر، والموعظة الحسنة، مما يهرع المتهضرين ويصيب منهم أقصى غايات الاعجاب والاكبار، ولكنه الوحي والالهام الذي تُلهمهُ الفطرة القوية النقية البريئة، ويؤتى الطبيعة الكريمة ما يؤتى سهوا رهوا، وليس هو بتاج العقل المسموع ولا بشمار الملكات المكتسبة.

«وبعد» فاما المولدون وهم الذين تصح المفاضلة بينهم وبين شعراء المغرب لأنهم جميعا تحضروا وعاشوا في رونق النعيم واعتركوا بالدنيا واعتركت بهم فالرأى عندي أن يقال إن الشعر لفظ ومعنى، فاما اللفظ فإن شعراء المشرق لأن أكثرهم جاور الأعراب وأهل البادية ولقنوا اللغة منهم والتصقوا بهم ونشئوا في احضانهم وغذوا بلبانهم ترى لهم الالفاظ المتخيرة، والدياجة الكريمة، والطبع المتمكن والسبك الجيد وكل كلام له ماء ورونق، وترى شعرهم رصينا متسقا على استواء واحد لا يتدافع من جهاته ولا يتعارض من جوانبه ولا يجمع ولا يشتط ولا يأتيه الضعف والهليلة والاسترخاء من اية ناحية من نواحيه: وأما المعنى فإن فحولة شعراء المشرق الذين افتنوا في المعاني افتنانا وغاصوا عليها وامعنوا حتى ظفروا بكل معنى عجيب يعمر الصدر ويذكي الروح ويشع في دنى العقل فتتجلبب له ظلمته وتنير نواحيه وتفتح مغالقه مثل بشار بن برد وأبى نواس وابن الرومي وهذه الطبقة فهم إنما بلغوا هذه الدرجة لأنهم من الموالى أبناء تلك الأمم الحمراء الذين امترسوا بالحضارة قبل العرب امتراسا وعالجوها وعالجتهم وداوروا صنوفها من الصناعات والعلوم وما إليها وصرفوا فيها اعنة الفكر وقدحوا لها زناد الرأي وهلم حتى أنمى ذلك على كر الغداة ومرّ العشى عقولهم، وشحذ أذهانهم واذكى ارواحهم وأكسبهم ملكات عبقرية عجيبة، فورث ذلك منهم ابناؤهم وانحدر مع دمائهم وكان منهم هذا النبوع الذي نرى آثاره في السلام.

وما كاد أبو عبد الله يتم قوله تلك حتى صاح أبو بكر ابن القوطية وقال أشيخنا

(١) أى على مذهب الشعوبية والشعوبية - ويسمون أنفسهم أهل العدل والتسوية - يذهبون إلى أن الناس كلهم سواء وأن ليس شعب أفضل من شعب وأن لا فضل للعرب على غيرهم وإذا أبى العرب إلا الذهاب إلى أنهم أفضل من غيرهم ذهبوا هم كل مذهب فى الطعن على العرب وتنقصوهم والصقوا بهم كل عاب ومنقصة ولعل هذا قد نشأ بآدى ذى بدء من احتقار العرب هذه الامم الحمراء من الاعاجم ومن إليهم إذ كان العرب هم السادة وذوى الملكة والسلطان وكانت هذه الامم عبيداً لهم وموالى أو مستظلين برايتهم مستعمرين لهم، ونحن نورد هنا نبداً من مفاخرات الفريقين ومحاوراتهم وتطعاتهم بعضهم على بعض لأنه معنى مستلذ فضلاً أنه ليس يخلو من فائدة، فمن قول العرب أو المنعصين للعرب على المعجم - ويراد بالمعجم كل ما ليس بعربى - فمن قولهم: لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا احسان إلا استفاذنا له من الكفر واخراجنا له من دار الشرك إلى دار الايمان كما فى الاثر أن قومًا يقادون إلى حظوظهم بالسواجير «جمع ساجور وهو القلادة أو الخشبة التى توضع فى عنق الكلب» وكذلك جاء فى الاثر: عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة فى السلاسل، على أن تعرضنا للقتل فيهم، فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك فإله امرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا فى مكاتبكم «المكاتبه أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال يتجمعه «يقسطه» عليه ويكتب عليه أنه إذا أدى نجومه «اقساطه» فى كل نجم كذا وكذا فهو حر فإذا أدى جميع ما كتابه عليه فقد عتق وولاه لمولاه الذى كاتبه وذلك أن مولاه سوغه كسبه الذى هو فى الاصل مولاه، وقدم نافع بن جبير بن مطعم رجلاً من الموالى يصلى به فقالوا له فى ذلك فقال إنما أردت أن اتواضع لله بالصلاة خلفه، وكان نافع هذا إذا مرت به جنازة قال من هذا فإذا قالوا قرشى قال واقوماء وإذا قالوا عربى قال وابلدته وإذا قالوا مولى قال هو مال الله يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء، وكانوا لا يكونونهم بالكفى ولا يدعونهم إلا بالاسماء والالقباب ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإن كان الذى يحضر غريباً، وروى أن عامر بن عبد القيس فى نسكه وزهده وتقشفه وعبادته كلمه حمران مولى عثمان بن عفان عند عبد الله بن عامر صاحب العراق فى تشجيع عامر على عثمان وطعنه عليه فانكر ذلك فقال له حمران لا كثر الله فينا مثلك فقال له عامر بل كثر الله فينا مثلك فقل له أيدعو عليك وتدعو له قال نعم يكسحون طرقتا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا، فاستوى ابن عامر جمالاً وكان متكئاً فقال ما كنت اظنك تعرف هذا الباب لفضلك وزهادتك فقال ليس كل ما ظننت أنى لا أعرفه لا أعرفه، ويروى أن أعرابياً من بنى العنبر دخل على سوار القاضى فقال إن أبى مات وتركنى وأخاً وخط خطين ثم قال وهجيتاً ثم خط خطأ ناحية فكيف يقسم المال فقال له سوار ههنا وارث غيركم قال لا قال فالمال بينكم أثلاثاً قال ما أحسبك فهمت عنى، إنه تركنى وأخى وهجيتاً فكيف يأخذ الهجين كما أخذ أنا وكما يأخذ أخى قال أجل فغضب الاعرابى.

ومن قول الشعوبية: اخبرونا إن قالت لكم المعجم هل يعدون الفخر كله أن يكون ملكاً أو نبوة -

- فإن زعمتم أنه ملك قالت لكم وإن لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والسماردة والعمالة والاكاسرة والقياصرة وهل ينبغي لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذي سخرت له الانس والجن والطيور والرياح وإنما هو رجل منا، أم هل كان لأحد مثل ملك الاسكندر الذي ملك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها، وكيف ومنا ملوك الهند، وإن زعمتم أنه لا يكون الفخر إلا بنبوة فإن منا الانبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ما خلا أربعة هودًا وصالحًا وإسماعيل ومحمدًا ومنا المصطفون من العالمين آدم ونوح وهما المنتصران اللذان نفع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع وإنما أنتم غصن من أغصانتنا فقولوا بعد هذا ما شئتم أو دعوا، ولم تزل للامم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض ملوك تجمعها ومداين تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة تتجها وبلائع تفتقها في الأدوات والصناعات مثل صنعة الديباج وهي أبداع صنعة ولعب الشطرنج وهي أشرف لعبة ومثل فلسفة الروم وما إليها وما كان للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصبيها ويقمع ظالمها وينهى سفيهاها، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلا ما كان من الشعر وقد شاركها فيه العجم وذلك أن للروم أشعارًا عجيبة قائمة الوزن والعروض وكذلك الخطابة فانها شيء في جميع الامم ويكل الاجيال إليه أعظم الحاجة حتى إن الزنج - مع الغثارة ومع فرط الغباوة ومع كلال الحد وغلظ الحس وفساد المزاج - لتطيل الخطب وتفوق في ذلك جميع العجم وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ والفاظها أخطأ وأجهل - وقد علمنا أن اخطب الناس الفرس واخطب الفرس أهل فارس وأعذبهم كلامًا وأسهلهم مخرجًا وأحسنهم أداء وأشدهم فيه تحنكًا أهل مرو، ومن أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر في اللغة فليقرأ كتاب كاروندو من احتاج إلى العقل والأدب وألهم بالمراتب والعبير والمثالات والألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة فليتنظر إلى سير الملوك، فهذه الفرس ورسائلها وخطبها والفاظها ومعانيها، وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة والخطأ من الصواب، وهذه كتب الهند في حكمها واسرارها وسيرها وعللها فمن قرأ هذه الكتب عرف غور تلك العقول وغرائب تلك الحكم وعرف أين البيان والبلاغة وأين تكاملت تلك الصناعة.

قال الجاحظ ينضح عن العرب: أما الهند فإن لهم معاني مدونة وكتب مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف وإنما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الأرض سائرة مذكورة.

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكى اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتميز الكلام وتفصيله ومعانيه، وبخصائصه، وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكره بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة.

وفي الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهد خلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكير وحراسة الكتب، وحكاية الثاني علم = =

الأول، وزيادة الثالث فى علم الثانى، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم.

وكل شىء للمرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه الهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا اجالة فكرة، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين أن يمتح على رأس يثر، أو يحدو بيبعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع، أو فى حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذى إليه يقصد، فتأنيه المعانى أرسالا؛ وتثال عليه الالفاظ اثتبالا، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحد من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر، وكل واحد فى نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أو جز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بمقولهم، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب، وإن شيئا الذى فى أيدينا جزء منه لبالمقدار الذى لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب، وعدد التراب، وهو الله الذى يحيط بما كان، والعالم بما سيكون.

ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للمرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز، ومن المنثور والاسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج؛ فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرويق العجيب، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول مثل ذلك لا فى السير والنبذ القليل، ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبى عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير، وأخرى أنك متى أخذت بيد الشعبي فادخلته بلاد العرب الخلف، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته على شاعر مفلق، أو خطيب مصقع، علم أن الذى قلت هو الحق، وأبصر الشاعر عيانا، فهذا فرق ما بيننا وبينهم.

فتفهم عنى فهمك الله ما أنا قائل فى هذا، واعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصبا، ولا أقل غنما، من أهل هذه النحلة، وقد شفى الصدور منهم طول جشوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن فى قلوبهم، وغيلان تلك المراحل الفائرة؛ وتسعر تلك النيران المضطربة، ولو عرفوا أخلاق كل ملة؛ وزى كل لغة، وعلمهم فى اختلاف إشاراتهم وآلاتهم، وشمائلمهم وهيتاتهم، وما علة كل شىء من ذلك، ولم اختلقوه ولم تكلفوه، لأراحوا أنفسهم، وتخففت مؤنتهم على من خالطهم. اهـ. ملخصا من المقد والبيان والتبيين، ويظهر أن هؤلاء الشعوية تجمعت أوائل الدولة العباسية وإن كانت جرثومتها أقدم من ذلك.

بالتقوى وأن تفاضل الناس فيما بينهم ليس بأبائهم ولا بأحسابهم ولكنه بأفعالهم
واخلاقهم وشرف انفسهم ويعد همهمهم، فمن كان دنيء الهممة ساقط المروءة لم
يشرف وإن كان من بنى هاشم في ذؤابتها، ومن أمية في ارومتها، وقيس في اشرف
بطن منها، ومن ثم يقول الله جل شأنه: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ويقول رسول
الله في خطبة الوداع: «أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء
- كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى فإني مع
هذا أقول ما قاله ابن المقفع - وقد سأل جماعة من أشراف العرب - أي الامم
أعقل، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لعله أراد أصله من فارس - فقالوا: فارس،
فقال ليسوا بذلك، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيماً من الملك،
وغلّبوا على كثير من الخلق، ولبت فيهم عقد الامر فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ولا
ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم، قالوا: فالروم قال أصحاب صنعة، قالوا: فالصين
قال أصحاب طرفة، قالوا الهند، قال أصحاب فلسفة، قالوا السودان، قال: شر خلق
الله، قالوا الخزر، قال: بقر سائمة، قالوا فقل قال العرب، فضحكوا، فقال: «أما إني
ما اردت موافقتكم ولكن اذ فاتنى حظى من النسبة فلن يفوتنى حظى من المعرفة إن
العرب حكمت على غير مثال مَثَل لها، ولا آثار اُثرت أصحاب إيل وغنم، وسكان
شَعَرٍ وأدَم، وجود احدهم بقوته ويتفضل بمجهوده، ويشارك فى ميسوره ومعسوره،
ويصف الشيء بعقله فيكون قلدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسن ما يشاء فيحسن،
ويقبح ما يشاء فيقبح، أدبته نفوسهم، ورفعتهم همهمهم، واعلتهم قلوبهم
والستهم، فلم يزل حياء الله فيهم وحبائهم فى أنفسهم، حتى رفع لهم الفخر وبلغ
بهم اشرف الذكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم
إلى الحشر على الخير فيهم ولهم فقال: ﴿إِنْ الْأَرْضَ لَن يورثها من يشاء من عباده

والعاقبة للمتقين» فمن وضع حقهم خسر، ومن انكر فضلهم خسر ودفع الحق باللسان، اكبت للجنان».

بيد أن العرب لم يكن لهم بادي ذي بدء دراية بالحرف والصناعات، وبالعلوم وتعلمها الذي هو في عداد الصناعات، وذلك لمكانهم من البداوة، ورسوخ اقدامهم فيها، ومن ثم كانت الشريعة الاسلامية - إذ كان القوم أكثرهم اميين - تتناقل في صدورهم - وجرى الأمر على ذلك ازمان الصحابة والتابعين - فلما بعد النقل من دولة الرشيد فما بعد احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه، ثم كثر استخراج احكام الوقائع من الكتاب والسنة، وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية، وصارت العلوم الاسلامية ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع، وهو معلوم أن الصنائع من متحل الحضرة، والعرب ابعد الناس عنها والحضر لذلك العهد هم المعجم أو من في معناهم من الموالى، فكان صاحب صناعة النحو سيبويه ثم الفارسي من بعده ثم الزجاج، وكلهم عجم في انسابهم، وكذا حملة الحديث وعلماء اصول الفقه وعلماء الكلام والمفسرون، واكثر فقهاء الامصار مثل الحسن بن أبى الحسن ومحمد بن سيرين فقيهى البصرة وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار فقهاء مكة وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبى نجيح فقهاء المدينة وربيعة الراى وابن أبى الزناد فقهاء قباء وطاوس وابن منبه فقيهى اليمن وعطاء بن عبد الله فقيه خراسان ومكحول فقيه الشام والحكم بن عتيبة وعمار بن أبى سليمان فقيهى الكوفة وهلم، وبالجمله لم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الاعاجم وظهر بذلك مصداق قوله ﷺ لو تعلق العلم باكتاف السماء لناله قوم من أهل فارس، وأما العرب الذين ادركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فقد شغلتهم الرئاسة فى الدولة وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه، فإنهم أهل الدولة وحاميتها واولو سياستها مع ما

عنده، وسرت الملكة بقوله وأمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذي دعا المسلمين إلى الختان وتجشم المكروه فيه مع خلوه من الفائدة، فقال للترجمان عرفها أن فيه أكبر فائدة، وذلك أن الغصن إذا أبر قوى واشتد وغلظ، وما دام لا يفعل به ذلك فإنه يبقى رقيقاً ضعيفاً، فضحكت واستظرفته، ومن نوادره أنه أرسل مرة سفيراً إلى بلاد المجوس «اسوج ونروج» وقد قارب الخمسين، وقد خطه الشيب، ولكنه كان مجتمع الأشد فسألته زوجته الملك يوماً عن سنه فقال مداعباً لها عشرون، فقالت وما هذا الشيب فقال وما تنكرين من هذا، ألم ترى قط مهرًا ينتج وهو أشهب، فأعجبت بقوله فقال في ذلك - واسم الملكة تود:

كلفت يا قلبي هوى متممبا
غالبت منه الضيفم الاغلبا
أنى تعلقت مجوسية
وتأبى لشمس الحسن أن تغربا
اقصى بلاد الله فى حيث لا
يلقى إليه ذاهب مذهببا
ياتود يا ورد الشبيب الذى
تطلع من ازرارها الكوكببا
يا بأبى الشخص الذى لا ارى
احلى على قلبى ولا اهدببا
أن قلت يوما أن عيني رأت
مشبهه لم أعد أن اكذببا
قالت ارى فوديه قد نورا
دعابة توجب ان ادمببا
قلت لها ما باله انه

قد يتج المهر كذا اشهباً
 فاستضحكت عجباً بقولي لها
 وإنما قلت لكى تعجباً
 ولما فهمها الترجمان شعر الغزال ضحكت وأمرته بالخضاب فغدا عليها وقد
 اختضب وقال:

بكرت تحسن لى سواد خضايى
 فكان ذاك اعادنى لشبائى
 ما الشيب عندى والخضاب لواصف
 إلا كشمس جللت بضباب
 تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا
 فيصير ما استنرت به لذهاب
 لا تنكرى وضع المشيب فإنما
 هو زهرة الافهام والالباب
 فلدى ما تهوين من زهر الصبا
 وطلاوة الاخلاق والآداب
 ومن شعر الغزال الهين اللين الذى يرتفع له حجاب السمع، ويوطأ له مهاد
 الطبع كما يقولون قوله:

قالت أحبك قلت كاذبة
 غُرِّى بذاً من ليس ينتقد
 هذا كلام لست أقبله
 الشيخ ليس بحببه أحد

سيان قولك ذا وقولك
 أن الريح نعقدها فتنعقد
 أو ان تقـولـى النار باردة
 أو ان تقـولـى الماء يتـقـد

وقوله:

لا ومن اعـمل المطايا إليه
 كل من يرتجى إليه نصيبا
 ما أرى ههنا من الناس إلا
 ثعلباً يطلب الدجاج وذيبا
 أو شبيهاً بالقط ألقى بعينـه
 هـ إلى فـارة يريد الوثوبا

وحدثنا أبو بكر بن القوطية قال كان عباس بن ناصح الثقفى قاضى الجزيرة
 الخضراء يغدو على قرطبة ويأخذ عنه ادباؤها فمرت بهم يوماً قصيدته التى اولها:
 لمـرك ما البلوى بـعار ولا العدم
 إذ المـرء لم يـعـدم تقى الله والكرم

حتى مر بهم قوله:

تجاف عن الدنيا فما لمعجـز
 ولا عاجـز إلا الذى خط بالقلم

وكان الغزال إذ ذاك فى الحلقة، وكان حدثا نظاماً متادباً متوقد القريحة فقال:
 أيها الشيخ وما الذى يصنع مفعـل مع فاعـل، فقال كيف تقول، فقال كنت أقول فليس
 لعاجـز ولا حازم، فقال له عباد الله يا بنى لقد طلبها عمك فما وجدها.